السلم والحرب

لما احتُفل بتدشين هيكل السلم في الهاي منذ ايام معدودة انقسم الرأي العام في اوربا الى فريقين فريق جدَّد فكرة نشر لواء السلم العام وتآخي البشر وتآلفهم وفريق سفَّه هذه الفكرة وهزأ بمروِّجيها ودعاتها قائلاً انهم مغترون بسراب . ولكلٍ من الفريقين براهين يستند اليها في تأييد مذهبهِ وحجج يدلي بها لافحام خصومهِ

اما الفريق الاول فيقول ان الناس كانوا متفرقين في اول امرهم افراداً ثم اجتمعوا عائلات فجماعات فاخذاً فبطوناً فقبائل فشعوباً وان من طبع الانسان الاجتماع لا التفرق فكما ان الناس تدرجوا في الاجتماع من افراد الى امة متحدة في المصالح متفقة في الاغراض والاهواء كذلك لا يعسر على الامم ان تعيش متآخية متصافية بمقتضى قوانين يسرن عليها كما يسير افراد الامة الواحدة بمقتضى قوانين بلادهم . فاذا وقع خلاف بين امتين او اكثر على امر من الامور استأنفتهُ الى محكمة دولية عليا يتفقن على انشائها فتحكم فيهِ مثلما تحكم المحاكم العادية في الخلاف الذي يقع بين الافراد فلا يعدن يحتدن الى السيف والمدفع لحسم ذلك الخلاف

فم ان انتقال الناس من الحالة الفردية الى الحالة الاجتماعية وتألبهم امماً وشعوباً استغرق الوف السنين ولكن الاحوال في تلك العصور كانت غيرها هذه الايام فكانت اسباب المواصلة حينئذٍ صعبة جدًّا وكانت كل امة تعيش على حدتها منفصلة عن سائر الامم فلا تربطها بها رابطة الاَّ اذا كانت دفاعية او عدائية ولم تكن هذه الربط طويلة الاجل . ولكن الشعوب في هذه الايام تعيش كأنها افراد عائلة واحدة فالبخار والكهرباء قرَّبا الابعاد فصار ابن مصر يخاطب ابن اميركا باسرع مما كان يستفرغهُ سميرهُ من العتبة الخضراء الى العباسية وابن سورية يصل الى اقصى الولايات المتحدة باقل مما كان يقتضيهِ سفرهُ من القدس الى حلب وصار كل شعب يعتمد على الآخر في اسباب معايشهِ . فالانكليز يعتمدون الآن في معيشتهم على ما يرد الى بلادهم من الحنطة وسائر انواع الغذاء من الولايات المتحدة وروسيا والهند ورومانيا وكندا وبرازيل واستراليا وغيرها وفي متاجرهم على ما ترسلهُ اليهم الولايات المتحدة ومصر والهند من القطن واسوج من الورق وكندا واميركا والشرق الادنى من الخشب والهند والهند الصينية من الكتان والقنب . وصارت الصين لا تقدم على مشروع

كبير او حمل عظيم الاَّ وتعتمد في تحقيقهِ على الاموال الاوربية . وما يقال عن انكلترا والصين يصدق على كل الامم بالمثل فالمانيا وروسيا والنمسا وايطاليا وفرنسا والولايات المتحدة وكل امة على وجه هذا المعمور لا تستطيع ان تعيش الآن منفردة عن سائر الامم ومنعزل كما كانت تفعل في العصور الغابرة بل انها لا تستطيع البقاء على ذلك طويلاً

وهناك عوامل الحضارة وزيادة احتكاك الشعوب بعضها ببعض واتفاق المصالح واهم من ذلك كلهِ ارتباط العمال والصناع في بلدان العالم وتبادل العواطف بينهم فصار العالم بذلك سلسلة متصلة الحلقات اذا اصابت حلقة منها مصيبة تأثرت لها سائر الحلقات كما حدث في حرب البلقان الاخيرة وما نجم عنها من الملابسات في مختلف البلدان

وقد كانت الحرب صناعة الناس في الزمن الماضي والغزو الحرفة التي يرتزقون بها حتى ان كثيرين منهم كانوا يؤجرون نفوسهم لكل غازٍ وفاتح . ولكن ليس في العالم المتمدن الآن من يميل الى الحرب او يشتهيها . وقد صارت الشعوب تحكم نفسها بنفسها ولم تعد مسخرة لارادة بضعة رجال يتحكمون فيها كما يشاؤون . ولما كانت هذه الشعوب تكره الحرب لما تجرهُ من الويل والدمار والخسارة في الرجال والمال والكساد في التجارة وتوقف الصناعة باتت تنشد السلم وتبذل دون تأييدهِ كل نفيس وغالٍ . فهذه حرب البلقان الاخيرة اصدق شاهد على صحة ذلك فان مجال دخول الدول فيها كان متسعاً ولكنهن امتنعن عنهُ لعلمهن بما تجرهُ طيهن من المصائب والاحن . ولو حدث مثل هذه الحرب في الاعصر الغابرة لاشتبكت فيها دول اوربا كلها او بعضها وتطاحنت من غير روية او تبصر في عواقب اشتباكها وتطاحنها

وابلغ من ذلك كلهِ ان رجال الحرب انفسهم والواقفين حياتهم على خدمتها يذمونها ويسخطون على مضرمي نارها . فقد وصفها شرمان بالجحيم . وقال دوق ولنتون « ان النصر يتلوه الانكسار في شدة هولهِ وفظاعتهِ » وقال الجنرال السر تشارلس نيبير « من رأيي ان حياة الجندي تحاكي الراقص في غرفة طويلة كسيت جدرانها بالزجاج المكسَّر فلا ينتهي الى آخرها حتى يتجرح وجههُ باطرافهِ فينتبه لنفسهِ وتزول عن عينيهِ غشاوة الغرور والانخداع وهكذا يسير رجال الحرب في سبيلهم الدموي فرحين جذلين مخدوعين بامانيهِ الكاذب الى ان يفيقوا من غفلتهم . اما انا فلا ارى هذا السبيل لامعاً ساطعاً بل اراهُ احمر قاتماً »

ان تنازع البقاء وبقاء الاصلح امران بسيطان اذا نظر اليهما من حيث الانتخاب الطبيعي ولكن بساطتهما تزول اذا أُضيفت اعمال الانسان الى افعال الطبيعة فتطلق على

الناس معرفة الاصلح وزمن مجيئهِ فلا يعودون يدركون كيف يكون الاصلح أبالحرب ام بالحيلة ام بالسبق

كان الناس في اول عهدهم عزلاً من السلاح فدعاهم تنازع البقاء بينهم و بين الحيوانات الى استنباط الاسلحة فاخضعوا بها الحيوان ثم تنازعوا بها البقاء فباد ضعيفهم من أمام قويهم ولا يزال هذا التنازع دائرًا الى الآن على اساليب متنوعة وهو لازم للامم لزومهُ للافراد ولكن مما لا ريب فيهِ ان التنازع الطبيعي — اي ان يترك الامر للطبيعة لتبقي الصالح وتنفي غيرهُ — افضل من التنازع الاصطناعي . فقد وجد العلماء ان بعض الخمار الامريكي تبيض الواحدة منهُ اكثر من خمسين مليون بيضة في حياتها ومع ذلك لا يسلم منها الاَّ اثنتان في المتوسط . وهذا الاسراف كثير في كل انواع الحيوان والنبات والانسان لا يشذ عنها

وحجة مؤيدي الحرب ان الحروب من الاسباب التي تمنع زيادة النسل عمَّا تقوم بهِ البلاد ولكن المؤكد ان العوامل الطبيعية اشد منها كثيراً في ذلك المنع فقد ثبت بالاحصاء ان نمو الشعوب يقل ابان السلم اكثر مما يقل ابان الحرب فبرلين مثلاً من احدث عواصم الممالك الكبيرة واكثرها انتظاماً بل هي مثال ما يمكن ان تبلغهُ المدن في الانتظام المبني على الاصول العلمية ومع ذلك هبط عدد المواليد فيها اكثر مما هبط في لندن وباريس وذلك دليل على ان رفاه العيش يؤول الى قلة النسل

ولو كانت الحروب تثار لاسترداد حق مهضوم او لمساعدة الطبيعة على بقاء الاصلح لجاز لنا ان نسوغها ولكنها لا تثار لسوء الحظ الاَّ مجاراة للاهواء مثل حب السيادة والطمع بالكسب ونيل المجد وهذه تدفع اولياء الامور وقواد الجيوش واصحاب المصالح الى انشاء البوارج ونصب المدافع وصقل السيوف واعداد المبرة وسوق الجنود الى ميادين القتال

وزد على ذلك كلهِ ان الانسان غير مكلف ان يثير الحروب ليقتل من لا يستحق البقاء من نوع الانسان او من نقل وسائل المعيشة ببقائهِ لاسيما وان الذين يقتلون بها هم عادةً خيرة الامة وزهرة رجالها

يقول اهل الحرب ان الانسان ميَّال بطبيعتهِ الى الشر اكثر منهُ الى الخير وان الحرب اسى الوطنية وتبعث الفضائل فاذا ابطلت زالت الوطنية من قلوب الناس وتقلصت فيهم الفضائل . وقد فات هؤلاء الادعياء ان البراز كان عادة ممدوحة وشائعة في جميع انحاء العالم بطرق مختلفة فصار الآن عادة شائنة وممقوتة . وكان اباؤنا يباهون بمقاتلة الديكة ومناطحة الكباش فسخ ذلك ايضاً . وكانت الحيوانات تسام من الشقاء والعذاب مالا يطاق

فانشئت الآن الجمعيات لمنع القسوة على العجماوات - وكان الفقراء والمعوزون والعجزة والمرضى والمقعدون والقطاء يتركون وشأنهم يقاسون مرارة العيش وألم الامراض والاوجاع بلا راحم ولا مغيث فاقيمت لهم الآن دور الاحسان والمستشفيات والملاجئ لسد عوزهم وتنفيس كربتهم وتخفيف آلامهم . فزوال هذه وغيرها من العادات الوحشية التي كان يستحسنها الناس قديماً وصاروا يستهجنونها الآن دليل ناصع وحجة دامغة على ان الانسان لم يطبع على الميل الى الشر اكثر منهُ الى الخير بل انهُ كما تقدم في مضمار التمدن واخذ باسباب الرقي والحضارة زاد فيهِ الميل الى الخير وتغلبت عواطف الشفقة والرحمة فيهِ على عواطف القسوة والفظاظة

والوطنية او محبة الوطن لا تقوم باعتداء امة على جارتها ولا بتقحم قوم على قوم آمنين ولا بالاذعان لسورة الغضب والتزق واجابة داعي الاهواء والاغراض بل تكون بترقية الوطن وزيادة رفاهية اهلهِ وتوفير اسباب اليسر والرخاء لهم وبنشر العلم واعلاء منار الاداب ورفع مستوى الاخلاق وتخفيف المصائب والويلات والاعتناء بالصحة العمومية وتحسين النسل الى غير ذلك من الامور التي تزيد سعادة البشر وتكفل لهم الهناء

والفضائل التي يدعي اهل الحرب ان الحرب توجدها او تمكنها في النفوس كالشجاعة الوحشية والجرأة والاقدام وتحمل المتاعب والمصاعب والصبر على المكاره وعدم المبالاة بالخسارة مهما كبرت وعظمت — كل هذه وغيرها ليست اعظم من الفضائل التي يوجدها السلم . فالشجاعة الادبية لا تقل منزلة عن الشجاعة الوحشية والاقدام على الاعمال الكبيرة اوقع في النفس من الاقدام على خوض ميادين القتال لان الانسان يكون مدفوعاً في الاول بعامل التعقل والتبصر وفي الثاني بسورة التزق والطيش وليس احد يقول ان الجنون خير من العقل . ورواد الحضارة الذين يجتابون البلدان المظلمة لنشر لواء الحضارة و يعانون المشاق والاهوال في سبيل ذلك خير من الجنود الذين ينفقون عمرهم في خوض ساحات الحرب وميادين القتال والعالم الذي يحاول حل سر من اسرار الطبيعة او اكتشاف دواء لداء قتال قاضياً ليلهُ ونهارهُ في البحث والتنقيب والتجربة والاختبار صابراً على فشل امانيهِ مرة وخيبة مساعيهِ اخرى لأرفع مقاماً وأعلى منزلة في عيون الناس من اي قائد كان . فذانك الاسكندر وارسطو وناپليون الاول وپاستور ووجه التفاضل بينهم لا يخفى على احد

وقد تبدلت الحال اليوم عما كانت عليهِ منذ نصف قرن فان النساء اخذن يلجن ابواب

الاعمال التي لم يكن يطرقها الاَّ الرجال قديمًا . وفي اوربا واميركا الآن نهضة نسائية يقصد بها اشتراكهن مع الرجال في الحكم

ويذهب القائلون بوجوب بقاء الحروب الى انهُ يستحيل على الامم ان تتفقَ على سن قانون دولي عام يتمشى عليها كما يتمشى قانون بلاد على اهلها لانها لم تعتد ذلك الى الآن . وهو رأي مردود بانهنَّ اتفقن على سن قانون دولي عام للبريد وآخر للغنائم التي تغنم من الامم المحايدة في اثناء الحرب وغيرهما من القوانين حتى انهن قيدن الحرب بقيود صار بعضها مرعيًا بحكم العادة و بعضها مرعيًا بحكم الواجب حفظًا للامن الدولي العام وتنفيذًا لقرارات المؤتمرات الدولية في هذا الشأن . فاذا كن قد اتفقن على ذلك فلا يستحيل عليهن الاتفاق على تخفيف شر الحروب تدريجًا

كانت الحروب في الزمن الغابر وحشية في غايتها ووسطتها وكان اساسها الحقد او الحسد والغرض منها الشفي والانتقام او الاذلال والامتهان وكان الاقدمون يذبحون اسراهم او يمثلون بهم افظع تمثيل ويحاولون قتل من تيسر لهم قتلهُ من الاعداء مستحلين في سبيل ذلك كل المحرمات . اما الآن فقد اصبح دأب قادة الامم وعقلائها اجتناب الحروب او تخفيف ويلاتها قدر الامكان . ولما لم يكن بد من استعمال الشدة والقسوة في الحروب وضعوا لها حدًّا لا يتعدى القصد الحقيقي من الحرب فحرموا انواعًا من الاسلحة والمقذوفات والقنابل لاعتبارهم ان الحرب تصل الى غايتها من غير ان تستخدم فيها هذه الوسائل الفظيعة فصار الناس مدفوعين بذلك وبناموس الحضارة والارتقاء الى الرفق بالعدو ومعاملة اسراهُ وجرحاهُ بالتودُّدة والعناية . ولكن قد يتفق ان يجنح احدُ المحاربين عن مراعاة هذه القوانين ويعمد الى الطرق المحرمة ليحمل عدوهُ على مقابلتهِ بالمثل فتكثر الفظائع وتنعدم المبرات كما حدث في حرب البلقان الاخيرة فتقوم حينئذٍ قيامة العالم باسره على المقترفين . وهذا دليل على ان الامم اصبحت بمثابة جسم واحد تجمعها الانسانية ويربطها بعضها ببعض حكم الوجود وناموس الاجتماع وانها صارت متكافلة متضامنة بحيث لو خالفت احداها سيرها المعتاد أضر ذلك في المجموع كلهِ . وليس هذا التكافل والتضامن الاَّ مقدمة لاجتماع الامم كلها تحت قانون واحد كما كان تكالف بعض القبائل والشعوب وتضامنها مقدمة لاجتماعها في امة واحدة يتمشى عليها قانون واحد فتعيش متصافية بسلام واطمئنان

يقولون ان الاحقاد والضغائن من اكبر الاسباب المثيرة للحروب واهمها وانهُ لا امة في هذا الوجود الاَّ ولها ثأر على امة اخرى وما دام عاملا الحقد وحب الاخذ بالثأر يتفوران في الصدور

فلا امل باستئصال الحرب واستتباب السلم بين الامم . ولكن هذا القول كان يصح اطلاقهُ في الماضي لما كانت كل امة خاضعة لارادة شخص واحد تأتمر بأوامرهِ وتنتهي بنواهيهِ اما الآن فالامم لا تعمل الاَّ بارادتها فهي تعلم ما توجبهُ عليها مصلحتها وكيانها فتحكم العقل على القلب وتخضع لحكمهِ . ولا نظن ان الحقد والعداوة بلغا بين امة واخرى ما بلغاهُ من الفرنسويين والانكليز . ولكن مصالح الامتين قضت عليهما بالتقرب فالتفاهم فالاتفاق على تسوية ما كان بينهما من الاختلافات فزال بذلك ما كان بينهما من الضغائن والاحقاد . ولا يبعد ان تفاجئنا الايام بزوال ما بين فرنسا والمانيا الآن من العداوة الشديدة لاسيما وان عقلاء الامتين اخذوا يسعون في التقريب بينهما كما سبق عقلاء الفرنسويين والانكليز فقربوا بين امتيهما . وما دامت المصالح قد صارت المحور الذي تدور عليهِ علائق الدول وكانت هذه المصالح توجب الابتعاد عن الحروب لما تنزلهُ بها من التأثير السيئ وتقضي بزيادة التقرب بين الامم فانها ستكون اكبر الاسباب في ازالة الحروب

ان العوامل التي تعمل على تأييد السلم بين الامم الآن كثيرة اهمها الاربعة التالية

اولاً — العوامل التي لا تعمل مباشرة في شد اواصر الود والصفاء بين الامم وفي مقدمتها العلوم الطبيعية وعلم الطب . فالعلماء رفقاء بل اخوان معما تباينت اجناسهم ونأت بلدانهم . والغرض الاول من هذه العلوم ليس توطيد اركان السلم بل نفع البشرية ووقاية الناس من فتك الامراض والاوبئة وتسخير القوى الطبيعية لزيادة رخائهم وسعادتهم ولكن ليس من ينكر ان هذه الامور كلها من مؤيدات السلم ومعضداتهِ . فالصنائع والكهربائية والتعدين وسكك الحديد والملاحة وغيرها صار يبحث فيها الآن في مؤتمرات دولية يؤمها الناس من جميع انحاء المعمور وليس العهد بالمؤتمر الطبي الدولي الذي عقد في لندن في الشهر الماضي ببعيد

وكذلك المعارض العمومية التي تقام في البلدان المختلفة فانها من الاسباب التي تقرب الشعوب بعضها من بعض وتمكن الصداقة بينها حتى لقد قيل ان المعرض الابيض الذي اقامهُ الفرنسويون والانكليز في لندن منذ ثلاثة اعوام كان من اكبر الاسباب التي دعت الى توطيد الاتفاق الودي بين الامتين وترجيحهِ على قرار مكين

اما المعرض العام الذي عزمت حكومة الولايات المتحدة على اقامتهِ بعد عامين في سان فرنسيسكو عند الاحتفال بفتح قناتها فان حكومتين من اكبر حكومات العالم قررتا ان

لا تشترك فيه دلالة على امتيازهما من تفضيل تلك الحكومة شركات الملاحة التي في بلادها والتي تمتاز بواخرها ذلك التفضيل على شركات الملاحة في بلاد بهما فساء ذلك الاميركيين وحكومتهم واخذت صحفهم تصب جام امتعاضها وسخطها على تينك الحكومتين فقام شعباها يطالبانها بتعديل قراريهما ويثيران عليها بوجوب مشاركة الحكومة الاميركية مهما كانت الاعتبارات التي منعتها من الاشتراك في بادىء الامر لئلا يعلق اثر مي؟ في اذهان الاميركيين من جراء ذلك

ثانياً — العوامل التي تعمل مباشرة على شد اواصر الصداقة والتآخي بين الامم وتبادل العواطف الطيبة بينها. واهم هذه العوامل التزاور الذي كثر هذه الايام بين الملوك ورؤساء الحكومات والهيئات البارلمانية والبلدية والتجارية فقد كان ذلك باعثاً على اتفاق الامتين الفرنسوية والانكليزية والامتين الروسية والانكليزية وسبباً في التقرب الحاصل بين الانكليز والالمان الآن

ولا تنتصر الفائدة الناجمة عن هذا التزاور على الهيئات الرسمية والتجارية فقط بل تشمل تزاور هيئات العمال بعضها لبعض ايضاً

وقد القت جمعية دولية كبيرة انتظم في سلك عضويتها مئات الالوف من العمال من جميع البلدان غايتها السعي الى توحيد كلمة العمال في جميع انحاء العالم وجعل التآخي والسلم العام شعارهم وانشئت في الولايات المتحدة جمعية كبيرة لنشر تعاليم السلم بينهم وحثهم على عطف بعضهم على بعض بحيث لو رأى عمال بلادين ان حكومة من حكومتيهم شهرت الحرب على الاخرى ظلماً وبغياً اضربوا عن العمل في كلتا البلادين فشلوا بذلك يد الحكومة المعتدية والحكومة المعتدى عليها فلا تعودان تستطيعان الحرب

ثالثاً — العوامل التي تعمل على توطيد اركان السلم وذلك بترسيخ حب السلم في قلوب عامة الناس وحملهم على التمسك باهدابه . واعظم هذه العوامل جمعيات السلم المنتشرة في انحاء اوربا واميركا وهي تعد بالمئات . وقد عقدت هذه الجمعيات مؤتمر السلم الدولي الاول في لندن سنة ١٨٤٣ والمؤتمر الثاني في بروكسل في السنة التالية . وتلا ذلك اكثر من ثلث قرن احتدمت فيه نار الحرب بين بعض الامم فلم يكن في الامكان استئناف عقد هذه المؤتمرات الى سنة ١٨٧٨ لما عقد المؤتمر الثالث في باريس . وعقد المؤتمر الرابع في تلك المدينة ايضاً في اثناء المعرض الفرنسوي الذي أقيم سنة ١٨٨٩ ومن ثم انتظم انعقاد هذه المؤتمرات وعقد آخر مؤتمر منها هذا العام في بروكسل عاصمة البلجيك

وقد كان ذلك باعثاً على تأليف مؤتمرات وطنية في فرنسا وانكلترا لتعضيد المؤتمرات الدولية وشد ازرها . والمساعي مبذولة الآن لتأليف مؤتمرات وطنية مثلها في المانيا والنمسا وروسيا وايطاليا واسبانيا وغيرها من ممالك اوربا

ولا يخفى ما لهذه المؤتمرات من الفوائد في تعميم فكرة وجوب فصل الخصومات بين الدول بالتحكيم ووضع حد للتسلح والى غير ذلك من المسائل التي تبحث فيها في اجتماعاتها

رابعاً — العوامل التي تعمل على ازالة اسباب التحرش والتحكك بين الامم وذلك بسن قوانين دولية جديدة والاكثار من التشريع الدولي الذي يوجبهُ اشتراك المصالح الدولية

واول هذه العوامل واعظمها كلها ندوة التشريع الدولي وهي مؤلفة من ستين عضواً وستين مساعداً ينتقون من عظماء المحامين في العالم ويشترط في الاعضاء ان يكونوا من الفضلاء الذين خدموا التشريع الدولي عملياً او نظرياً وفي المساعدين ان تكون معارفهم وسعة اطلاعهم مما يفيد الندوة وقد الفت سنة ١٨٧٣ بمساعي المسيو رولن جكمين الفرنسوي

وتلي هذه الندوة في الاهمية نقابة التشريع الدولي وقد الفت سنة ١٨٧٣ ايضاً للغرض ذاته فنقابة التشريع الدولي الاميركية التي أُلفت سنة ١٩٠٦ فجمعية التشريع الدولي السويسرية

وهناك الاتحاد البرلماني الدولي وهو مؤلف من جماعات من اعضاء برلمانات الممالك المختلفة والغرض منهُ حمل حكامهم على اتباع مبدإ التحكيم في حسم خصوماتها وغيره من المسائل الدولية المهمة وذلك اما بالاقتراع عليها في المجالس النيابية او بوسائل اخرى يتخذونها لاقرار مبدإ التحكيم وجعله مرعياً في بلدانهم المختلفة

وقد افادت الجائزة التي عينها الفرد نوبل مكتشف الديناميت لاعظم الساعين في خدمة السلم العام او اكبر الكتاب الذين ينشئون احسن مؤلف عن تآخي الامم وعما يعود بانقاص التسليح وتجييش الجيوش و بزيادة جمعيات السلم ومؤتمراته في العالم

وفي اوربا الآن ثمانية ملايين من الاشتراكيين عدا بضعة ملايين غيرهم منفرقين في سائر انحاء المعمور ولما كان الغرض الذي ترمي اليهِ الاشتراكية هو التعاون الاجتماعي فهي من العوامل العديدة التي تؤيد السلم وتوطد اركانهُ (المقطم)